المحاضرة الثالثة: واقع الكتابة التاريخية خلال القرن 19م

من اجل القيام بكتابة تاريخية جادة بعيدا عن التزييف للحقائق لابد من الاعتماد على المصادر التاريخية، فمابالك اذا كنا بصدد كتابة تاريخنا الوطني في الفترة المعاصرة، في الوقت الذي ساد فيه الجهل احيانا، الامر الذي ادى الى عدم كتابة التاريخ، كما ساد التجهيل والطمس العمدي للتاريخ، وذلك لقطع الجذور الحضارية للشعب الجزائري وتسهيل ادماجه. فكانت سياسة فرنسا منذ احتلالها للجزائر تهدف الى محو معالم الانتماء الحضاري للشعب الجزائري، ساعية من وراء ذلك الى تسهيل تذويبه في المجتمع الفرنسي، وعلى هذا الاساس عملت على طمس التاريخ الوطني بكل الوسائل، واستمرت تلك السياسة ضد التاريخ والهوية خلال كل فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أولا–المشروع الفرنسي لتدوين تاريخ الجزائر

تحولت الجزائر بعد الاحتلال مباشرة الى مشروع ضخم للاستكشاف العلمي التاريخي، جندت من اجله الامكانيات المادية والبشرية، وبغرض تجميد البيانات والوثائق اجتهد مؤرخوا المدرسة الاستعمارية الفرنسية امثال بيربروجر وغيره بلورة ايديولوجية فكرية تاريخية تواترت حضورا في الخطاب والتأليف، والاهداف مبنية على تصور خاطئ ومغلوط لحضارة الجزائر وارثها الثقافي بغية اعادة رسم الخارطة الحضارية لمتوسط لاتيني مسيحي صرف وبلورة شخصية جديدة من خلال خلق بيئة اثنية وعرقية معدة سلفا لاحتضان الاستعمار، فشكلت الجمعيات التاريخية والاثرية والجغرافية على غرار الجمعية التاريخية لمدينة الجزائر سنة 1856م، بدعم فرنسي مباشر من الحاكم العام "جول كامبون" تم خلالها وضع قانون خاص بها، وتعيين اعضائها، فأسندت رئاستها الى بيربروجر الذي عمد الى اصدار المجلة الافريقية مباشرة والشروع في كتابة تاريخ الجزائر على اساس مصلحة الكولون ووفق مناهج علمية اخضعت الجزائر ارضا والجزائريين شعبا، لمخبر ايديولوجياتهم التي راهنوا على نجاحها وتحقيقها كما كان الهدف منه ايضا تبرير الاحتلال من جهة، والتأكيد على ان المجتمع الجزائري أمة وشعبا في حاجة ماسة الى الحضارة الاروبية.

كانت المجلة الافريقية لسان حال الجمعية التي صدرت في نفس تاريخ تأسيسها منبرا للكثير من الكتاب والمؤرخين والباحثين في مجال التاريخ والاثار وحقول المعرفة الاخرى.

ثانيا–الغاية من البحوث الفرنسية حول تاريخ الجزائر: لم تكن الغاية من تتبع ثقافة المجتمع الجزائري الاطلاع فقط على نمط عاداته وتقاليده بل الوصول الى معرفة اشكال تلك العلاقة واثر الدين الاسلامي واللغة العربية في توثيق عرى التواصل بين افراده حتى يتسنى للاستعمار ضرب تلك القيم والقضاء على الهوية كمقوم اساسي من مقومات الامة الجزائرية، وبالتالي التأسيس لكيان دخيل وشرعنة وجوده وضمان بقائه، وساعدت تلك

الدراسات ايضا على تحصيل تراكم معرفي كمي ونوعي الى جانب الابحاث التي انجزتها البعثات العلمية ممثلة في بعض الرحالة والقادة العسكريين وعلماء الاجتماع والمؤرخين وحتى الجغرافيين لتثبيت الايديولوجيا الكولونيالية في الجزائر المستعمرة .

ثالثا: مواطن تشويه التاريخ الوطني الجزائري

نوردها كما اوردتها العديد من الدراسات والابحاث التي قام بها العديد من المؤرخين وهي كما يلي:

-اعتبار الفتح الاسلامي-العربي للجزائر وبلاد المغرب العربي عموما احتلال وقرون مظلمة وغزو استعماري، فرض على السكان بالسيف، وأن الهدف منه لم يكن نشر الاسلام وانما بسط النفوذ ولهيمنة، لذلك نجد المؤرخين الفرنسيين في دراساتهم يركزون على احداث تاريخية محددة (كواقعة الكاهنة مع حسان بن النعمان، وحادثة كسيلة مع عقبة ابن نافع و...)

-تشويه صورة بعض الشخصيات البارزة والدعوة الى اعادة كتابة تاريخها، كعقبة ابن نافع فاتح بلاد المغرب يتحول حسبهم الى مستعمر وغازي ومرتكب جرائم بشعة، كذلك شخصية الامير عبد القادر الذي وصف بأنه متعصب دينيا طمع في حكم الجزائر بعد نهاية حكم العثمانيين انتقاما منهم.

-انكار وجود الجزائر كأمة وشعب ودولة، وان وجدت فقد تميزت بعدم القابلية للاستمرارية والديمومة، وان اسم الجزائر لم يظهر الا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، واستمر السياسيون والمؤرخون الفرنسيون في تقزيم الجزائر ودورها التاريخي وحداثة تكوينها السياسي حتى بعد الاستقلال، وهو ما يؤكدون عليه في كل مناسبة.

-كتب المؤرخون الفرنسيون عن الجزائر كمنطقة جغرافية تداولت عليها الدول والشعوب، من الفينيقيين الى غاية الفرنسيين، لم تكن كشعب او أمة وانما كانت عبارة عن قبائل متنافرة تخوض حروبا مستمرة، لا تخضعها الا القوة الغازية كالرومان والاتراك والفرنسيين.

-وصفوا فترة الوجود العثماني في الجزائر بأنها عهد سيطرة تركية وحكم واحتلال أجنبي، بسبب احتكار المناصب وسياسة الضرائب واتساع نطاق الروح العدوانية مما تجسد في ظهور مختلف حركات التمرد والثورات التي تبناها الجزائريون ضد الوجود العثماني.

-يفسر المؤرخون الفرنسيون ثورات الجزائريين الرافضة للاستسلام بالتعصب الديني، كونها موجهة ضد الاخر المسيحي.

-حاول الفرنسيون تشويه الثورة الجزائرية من خلال ربط اندلاعها بالواقع الاجتماعي والاقتصادي المتردي وبعلاقتها مع الخارج.